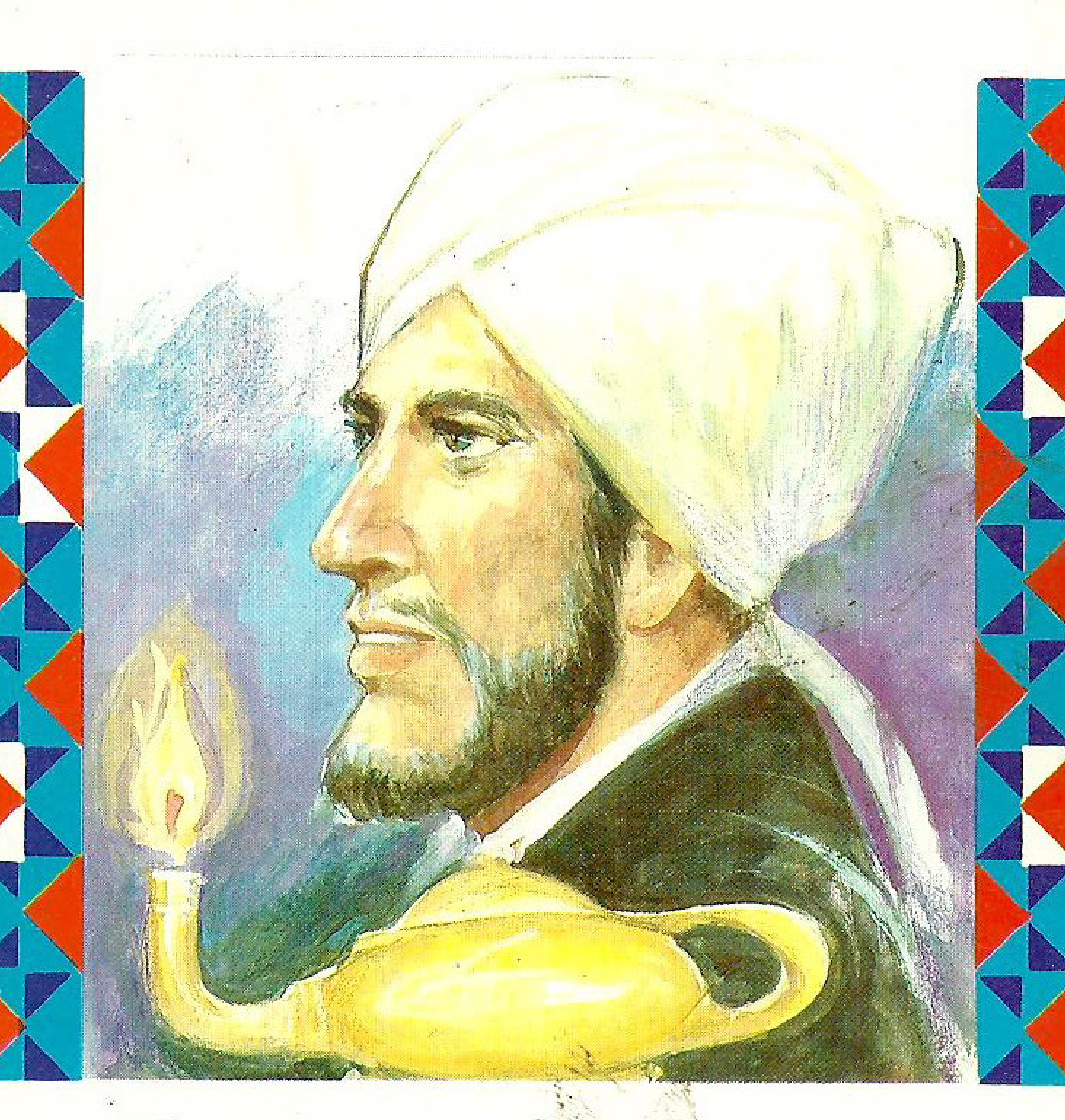


٣١

الزرنوجي

أبو التربية والتعليم



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

مركز الأهرام
للترجمة والنشر

علماء العرب

(٣١)

الزرنوجي

أبو التربية والتعليم



تأليف : سليمان فياض

رسوم : إسماعيل دياب

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٥٧٨٦٠٨٣ - فاكس ٥٧٨٦٨٣٣



ابن زرنوج

طَوالَ النهار ، كان الصبىّ « برهانُ الدين » ، يتجوّل فى بلدتهِ زَرْنُوج (بجمهورية أوزبكستان الآن) يُودّع مَزارِعَها ، والصحراءَ القريبةَ منها ، وطيورَها وحيواناتِها ، وحاراتِها ، ودروبَها ، فى رحلةِ وداعٍ قصيرةٍ ، قد لايعودُ بعدَها إلى « زَرْنُوج » .

وظلّ برهانُ الدينِ فى تجوّله إلى مابعدَ صلاةِ العصرِ ، ثم عادَ إلى بيْتِهِ ، ليتناولَ طعامَ الغداءِ وحيداً ، وأمُّه وأبوه وإخوتُه الكبارُ ، ينظرون إليه فى حبٍّ وإشفاقٍ ، فلسوفَ يسافرُ « برهانُ الدين » طلباً للعِلْمِ عامةً ، وللفقْهِ الإسلاميِّ الحنفِىّ خاصةً ، ولايعلمُ أحدٌ منهم متى سيعودُ إليهم ، ولا كيفَ سيكونُ مصيرُه فى طلبِ العلم ، من فشَلٍ أو نجاحٍ .

وخَلا الأبُ بابنهِ « برهان الدين » ، وقالَ له :

– ادخرتُ من أجلكَ بعضَ المالِ ، ولا أعرفُ متَى سأرسلُ لك مالاً آخرَ ، ولا كمْ سأرسلُ إليكَ منه يابُرهانَ الدين ، فالأرضُ التى نزرعُها قليلةُ المساحةِ ، تُخصِبُ حيناً ، وتُجدِبُ حيناً آخر .

فقال له برهانُ الدين بإشفاقٍ :

– لاتحمِلْ هماً يا أبى ، فلسوفَ يرزقُنى الله ، بما حفِظتهُ من القرآنِ الكريم ، والحديثِ الشريف ، ولسوفَ أنالُ جانباً من مالِ الزكاة ، الذى يُعطَى لطلابِ العلمِ ، والمغتربينَ من أبناءِ السبيلِ ، وسأجدُ مسكناً ، وطعاماً ، وثياباً ، بفضلِ الأساتذةِ من العلماءِ فى المسجدِ الجامعِ بخُوقند .

فقالَ لهُ أبوه مبتسماً :

– أرحتَ قلبى يابُرهان الدينِ ، ولن يُخيِّبَ اللهُ لكَ رجاءً ، مادامَ قلبُك عامراً بالأملِ ، وعقلُك مشتاقاً إلى العلمِ . ولولاَ استعدادُك للعلم ، ورغبتُك الملحةُ فيه ، لَأبقيْتك معِى ، تعيشُ حياتنا بخيرِها وشرِّها ، وخِصبْها وجَدْبها . باركَ الله فيكَ يابرهانَ الدين .

وصحبَ الأبُ وأبناؤه « برهانَ الدين » إلى المكانِ الذى ستغادرُ منه القافلةُ بلدةَ « زرنوج » فى طريقِها إلى « خوقند » . وصافَح برهانُ الدينِ أباَه وإخوتَه ، وعانَقَهم ، وركِبَ بغلةً عَليها متاعٌ قلِيلٌ . وغادرتِ القافلةُ بلدةَ « زرنوج » ، و « برهانُ الدين » ينظرُ خلفه ، مودِّعا أباه وإخوته ، ومراعِىَ زرنُوج وبيوتَها ، حتى غابتْ عنهُ المشاهدُ وراءَ الأفُقِ ، وكانتِ الشمسُ تغربُ ، ووراءَ سُحُبٍ خريفية ، تاركةً وراءَها سحباً بيضاء خضبّتها (لونتْها) بألوانِ الشَّفقِ .

مرحبا بك

عصر اليومِ التّالى ، كانتِ القافلةُ قد وصلَت ببرهانَ الدين إلَى مناخِ القوافلِ ، خارجَ « خُوقَنْد » ، فانفصَل « برهانُ

الدين » ببغلتِه ، يسألُ الناسَ عن سوقِ « خُوقند » حتى اهتدى إليهِ ، وعن المسجدِ الجامعِ لخُوقند ، فأشارَ له الناسُ إليه .

وربَط برهانُ الدين بغْلتَه ، بحلقةٍ فى سورِ المسجدِ ، وتركَها آمناً ، بينَ بغالٍ أخرى وخُيول . وخلعَ حذاءه ، وعبَر باب المسجدِ ، وتلفّتَ حولَه يبحثُ عن خادمِ المسجدِ ، حتى رآهُ ينظرُ نحوه ، فسألَه عن العالمِ الشيخِ الفقيهِ « المرْغيانى » ، فأشارَ خادمُ المسجدِ إليه . ونظرَ « برهانُ الدين » حيثُ أشارَ ، فرأى الشيخَ المرغيانى ، جالساً وسْطَ حلقةٍ ، على مقعدٍ وطيىء (منخفض) يشرحُ لتلاميذِه درساً من دروسِ الفقه الحنفىّ ، وشعَرَ « برهانُ الدين » بالراحةِ ، حين نظرَ إلى وجْهِ « المرغيانى » . كان وجهُه بشوشاً ودُوداً ، يشى بأصْلٍ هو خليطٌ من الدمِ التركىّ والعربىّ . ومشَى برهانُ الدين ، حتّى جلسَ فى طرْفِ حلقةِ العلمِ المحيطةِ بالمرغيانى ، ورمَقَه (نظر إليه) المرغيانى . وابتسمَ له ، وكأنّه يقولُ له : « مرحبا بك فى خوقند » .

كيف عرفت ؟

انتهى درسُ المرغيانى ، وقد قارَبَتِ الشمسُ على المغيبِ . وبدأتْ حلقةُ طلابِ العلم ، تنفضّ من حولِ الشيخِ ، فأشارَ

المرغيانى إلى بُرهانِ الدين بيدِه ، فنهضَ بُرهانُ الدين إليهِ ، وجلسَ بين يديْهِ ، قائلاً :

– سلامُ الله عليْك أيُّها الشيخُ الجليلُ .

وردّ الشيخُ تحيته بأحسنَ منها ، وقالَ لبرهانِ الدين :

– أأنتَ قادمٌ من « زَرْنُوج » ؟

فدَهِشَ « برهانُ الدين » ، وقالَ للشيخ :

– نعم . كيفَ عرَفتَ ياسيّدى ؟

فابتسمَ الشيخُ ، وقالَ له :

– قبلَ قليلٍ ، وصلتْ قافلةٌ قادمةٌ من زَرْنوج . فقلتُ لنفسِى لأبدّ أنّك جئتَ من زَرْنوج .

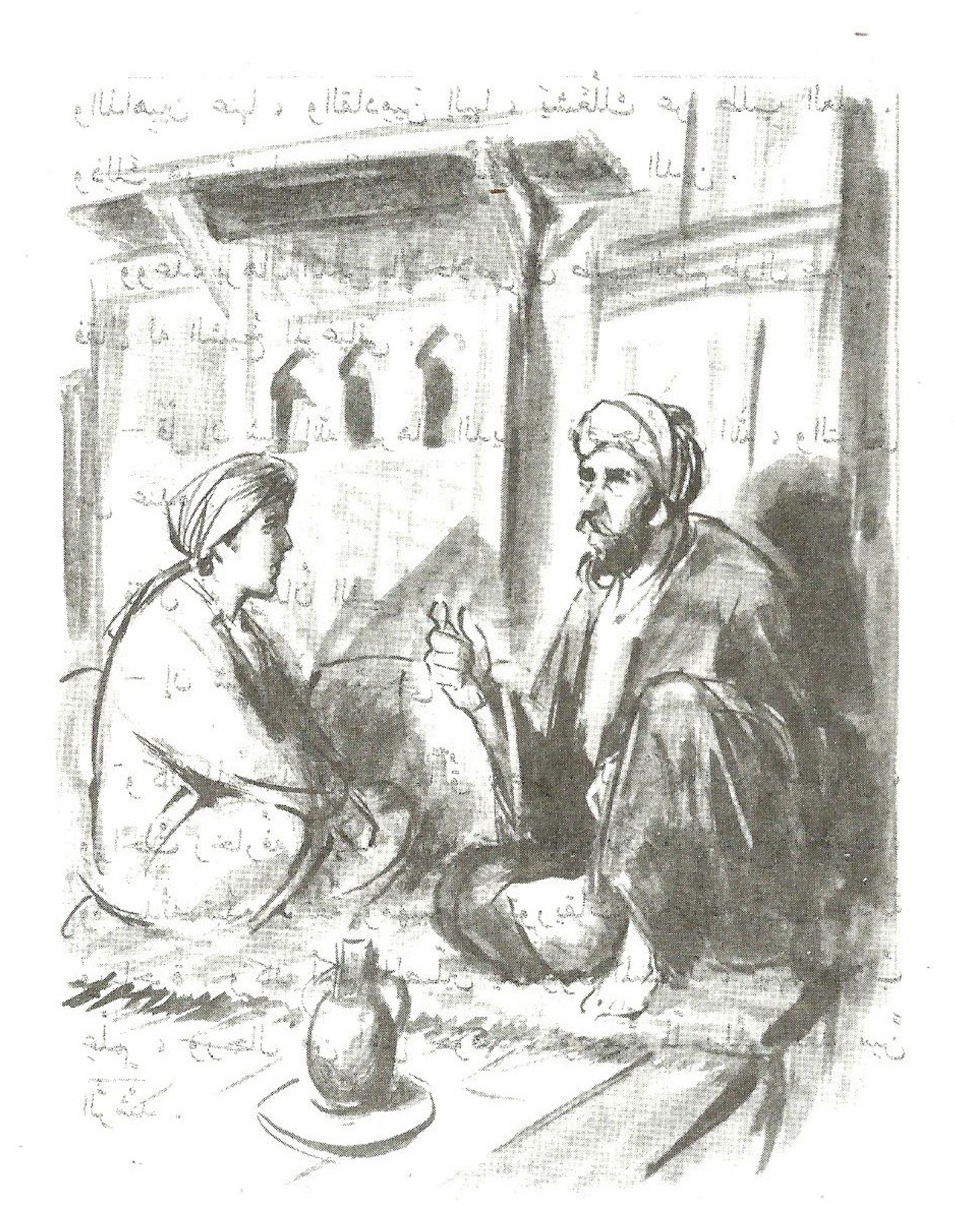
ثم قالَ لهُ الشيخُ مبتسماً :

– وأليْسَ اسمُك « برهان الدين » ؟

فقال لهُ برهانُ الدين :

– بلَى ياسيدِى ، ومعِي رسالةٌ مِن ..

فقاطعَهُ الشيخُ قائلاً بُودّ :



- من تلميذِنا إمامِ مسجد زرنُوج . فقد كتبَ إلّى من قبلْ ، وحدّثنى عنْك ، وأثْنَى (مدح) على حفظِك ، وفهمِك وذكائِك . أعطنِي الرسالةَ يابُرهانَ الدين .

وأخذَ المرغيانى الرسالَة ، لكنهّ لم يفضّ (يزيل) خاتَمهاً ، فقد ارتفَع صوتُ المؤذّنِ يؤذّنُ لصلاةِ المغرب . عندئذٍ نهضَ الشيخُ المرغيانى ، وتحركَ نحوَ المحراب ، وجلسَ ناظراً إلى المحراب ، ينتظرُ أن يفرَغ المؤذنُ من أذانِه ، ليؤُمّ الناسُ فى الصلاةِ .

أنتَ ضيفِى

انتهتِ الصلاةُ ، وراحَ الشيخُ المرغيانى يصافِحُ بعضَ المصلّين ، ثم التفتَ إلى برهانِ الدين ، فاقتربَ منه ، وقالَ له الشيخُ المرغيانى :

- أنتَ الليلةَ ضيفِي ، إلى أن ندبّر لك بيتاً تعيشُ فيه ، وفِراشاً تنامُ عليه ، فى بيت من بُيوتِ طلابِ العلم بخُوقند . ولاتحمِلْ هماً من هموم العيش ، فنفقتُك جاريةٌ فى هذهِ المدينةِ . وادّخِرْ للزمنِ ما أعطاهُ لكَ أهلُك من مالٍ . وأفرِغْ قلبَك كُله ، وعقلَكَ كلَّه ، لطلبِ العلم ، ولاتدعْ لَهْوَ أهلِ هذه المدينة ،

والذاهبين عنها ، والقادمِينَ إليها ، يَشغَلُك عن طلبِ العلم . وذلِكَ هو شرطِى عليْك . فعِدْنى يابرهان الدين .

ووعدَه برهانُ الدين بالإخلاصِ فى طلبِ العلم طَوالَ عمرِه . فقال له الشيخُ المرغيانىّ :

– قُلْ إن شاءَ الله يابرهانَ الدين ، فالرجاءُ من الله ، والتوفيقُ من عندِه .

فقالَ لهُ برهانُ الدين :

– إن شاءَ الله ياشيخى .

وكان المسجدُ قد بدأ يتألّقُ بأضواءِ المِشْكاوَات والقناديل ، وراحتْ زخارفُه الخطّيةُ ، بآياتِ القرآنِ الكريم ، تلوحُ لِلعيُونِ ، وأعمدتُه تبدُو رائعةً ومهيبةً ، وتوريقاتُ زخَارِفه تُرَى جذّابةً وساحِرةً . وكان أكثرُ المصلّين يغادرونَ المسجدَ ، بينهم طلابُ عِلْمٍ ، ورجالٌ من أهلِ خُوقند ، وصِبيةٌ لمّا يبلغُوا بعدُ سِنَّ الرُّشْد .

الليلة الأولى

وتبع « برهانُ الدين » شيخه « المرغيانى » فى طريقهِ إلى بيتِ الشيخ ، وصحبَ معهُ بغلتَه ، حتى وصلاَ إلى بيتٍ متواضعٍ ، لهُ ساحةٌ . وعبَر برهانُ الدين عتبَةَ البيتِ ، فرأى حلقاتٍ متناثرةٍ فى سورِه القصيرِ ، فعقدَ لجامَ بغلته بحلقةٍ منها ، وراحَ يُنزِلُ ما على البغلةِ من متاعٍ . وأسرَع خادمٌ بالبيتِ إلى البغلةِ ، بطعامها من التبن والفول ، وكان شرابُها من الماءِ بجانبِها فى حوْضٍ من الحجَر . وضحِكَ الشيخُ المرغيانى ، وقالَ لبرهانِ الدين :

– إطعامُ الحيوانِ من أدبِ الدين يابرهانَ الدين ، فعجّل به له ، قبل أن تنالَ أنتَ طعامَكَ .

وتبعَ برهانُ الدين شيخَه إلى داخل البيت ، وجلسَا معه فى غرفةِ الضيافة يتحدثان تحتَ ضوءِ قنديل عن أحوالِ زرنوج ، وخوقند ، وعنْ مدَى حفظِ برهانِ الدين للقرآنِ الكريم ، والحديثِ الشريف ، ومعرفتِه بالحسابِ ، فهو ضروريٌّ لكل من يشتغلُ بالفقه ، فى بابِ المواريث ، وباب الزكاة .

وعادَ الاثنانِ مرةً أخرىَ إلى المسجد الجامعِ بخُوقند ، وأدّيا

صلاةَ العَشاءِ ، ثم عادَا مرةً أخرى إلى بيتِ الشيخِ ، ووجدَ برهانُ الدين لنفسِه فى بيتِ الشيخ غرفةً هادئةً مُريحة ، بها فِراشٌ وثيرٌ للضيفِ ، فنَزَعَ عنه ثيابَ السفر . وسَرعانَ ما دخلَ فى نومٍ هادئٍ سريعٍ ، ليستيقظَ سعيداً ، ممتلئَ القلبِ بالأملِ ، قُبيلَ صلاةِ الفجرِ .

مصانع وبساتين

أذِنَ الشيخُ المرغيانى لبرهانِ الدين أن يتجوَّلَ فى « خُوقند » ، إثْرَ طعامِ الإفطارِ ، ليرَى المدينةَ التى سيعيشُ بها زمناً ، قد يقصُرُ وقد يطولُ ، تاركاً له هو أنْ يدبّر له مسكنَه الجديد ، وما قد يحتاجُ إليهِ من متاعٍ ، وأوراقٍ ، وأقلامٍ ، ومحبرةٍ . وغادرَ برهانُ الدين ، قُبيْلَ الضّحى ، بيتَ شيخِه المرغيانى .

وبهرتْ مدينةُ « خوقند » عينَىْ برهانَ الدينِ ، بسُوقِها ، ودارِ إمارتِها ، وشوارِعها ، وطرقاتِها ، وبساتينِها العامةِ فى الميادينِ ، والخاصةِ أمامَ البيوتِ المُترفَةِ ، ووراءَ أسوارِها . كانت مدينةُ خوقند تقعُ فى موضعٍ متوسّطٍ بين مدينتَىْ « طِشقَنْد » فى الغربِ ، و « سمرقند » فى الشرقِ ، وإلى جنوبِها الشرقىّ كانتْ مدينةُ فَرغانَة . وكانتْ « خُوقند » تنافسُ ، فى زمانِ

برهانِ الدين ، المدائنَ الكبيرة حولَها ، بجمالِها ، وآثارِها ، وتنظيمِها ، وعلمائِها .

وسارَ برهانُ الدين على شاطئِ نهر آمُودَارْيا (نهر سيحون) غربىّ خُوقند ، وكانَ النهرُ يحيطُ بمدينةِ خُوقند من الجنوبِ ، والغربِ ، وقد نمتْ على جانبيْه أشجارٌ سامقةٌ (عالية) ، وصدَحت بين أفنانِها (أغصانِها) تغاريدُ الطيور ، من بلابلَ وعصافيرَ .

ورأى برهانُ الدين رأىَ العينِ ، بخُوقند ، مصانعَ الحرفيّين للمنسوجات الحريريةِ والقطنيةِ ، ومصنعاً للورقِ الذى عرفَه العربُ عن أهلِ الصين ، وقدّر حينَ رأى ضخامتَه وعددَ العاملينَ به ، أنه ينافِسُ مصانع أخرى للورَق ، كان يسمعُ عنها فى بُخارى ، وسمَرْقند ، وفَرغَانَة . ورأى سُفُنَ التجارة والصيد ، غاديةً ورائحةً فى النهر ، شمالاً وجنوباً ، تحملُ السِّلَع والبضائعَ والصيادينَ ، ورأى قواربَ نهريةً صباحيةً ، تحملُ المتنزهّين .

وكادتْ مشاهدُ خُوقند تَشغَلُ برهانَ الدين ، كصبىّ ، عن لقاءِ شيخهِ ، لولاَ أنه سمِعَ أصواتَ المؤذّنين ، تدعُو الناسَ إلى

صَلاة الظهرِ ، فى مساجدَ خُوقند ، فأسرعَ برهانُ الدين إلى المسجدِ الجامعِ ، مسترشداً بمئذنتِهِ المهيبة ، الممتدةِ فى الفَضَاء .

بين حلقات العلم

فى « خُوقَنْد » استقرّ المُقَامُ ببرهانِ الدين ، فى بيتٍ جميلٍ من غرفتينِ ورَدهة ، تطلُّ شرفتُه على الشاطىء الغربىّ لنهرِ آموداريا . وبين الحينِ والحينِ ، كان برهانُ الدين يكتبُ رسائلَ لذوِيه (أهله) ، يبعثُ بها مع القوافِلِ المارةِ بزرنوج ، أو مع بريد الخيل ، بين مدائنِ بلادِ ماوراءَ النهرِ ، وفى كلِّ يومٍ ، كانَ برهانُ الدين يقضى صباحَهُ فى المذاكرةِ لما سمِعَه من دروسِ شيخِهِ المرغيانى ، فى الفقهِ الحنفىّ ، وكان فقها يعتمدُ على أحكامِ النصِّ القرآنى أولاً ، والحديثِ الموثوقِ بهِ ثانيا ، ويُحكّمُ العقلَ وروحَ الدين ، فيما لم يردْ به نصّ من قرآنٍ أو سُنّةٍ ، من أمورِ الناسِ الجديدةِ المستحدثَة ، عبْرَ العصورِ والبُلدان . وعندَ العصرِ كان برهانُ الدينَ يجلسُ مع طلابِ الفقه ، فى حلقةِ شيخهِ المرغيانى ، ويجلسُ بين صَلاتَىْ المغربِ والعِشاء ، مع طلابِ علومِ اللغةِ ، فى حَلْقةٍ من حَلْقاتِ علماءِ اللغة ، فى النحوِ أو الصرفِ ، أو البلاغةِ ، بمسجدِ خُوقند الجامع .



كيف تذاكر دروسك ؟

وخلاَ الشيخُ المرغيانى يوماً ببرهانَ الدين ، وهو يزُوره فى بيتِه ، وسأَلَه قائلاً :

– كيفَ تذاكرُ دروسَك يابرهانَ الدين ؟

فقالَ له برهانُ الدين :

– أذاكرُ دروسَ كلِّ يوم ، فى صباحِ اليومِ التالى ، أولاً بأوّل ، وجزءاً جزءاً .

فقال لهُ الشيخُ المرغيانى :

– وكيفَ تراجعُ ماسَبَقَ من دُروس ؟

فقال له برهانُ الدين :

– إننى أعتمدُ على جوْدةِ حفظى ، وقوةِ ذاكرتى ، ياشيخى .

فابتسمَ الشيخُ المرغيانى ، وقالَ له :

– يابرهانَ الدين . العقلُ يكِلّ (يضعف) من كَثْرةِ معارفِ العلوم ، والحفظُ يقلّ عاماً بعدَ عام . والتحصيلُ الجزئىّ المتَناثِر والمتراكِم (المتجمع) لمعارفِ العلمِ ، معرفةً بعد معرفة ، ومعلومةً بعد معلومةٍ ، تظلّ منفصلةً ، لايجمعُها كلُّ واحد ، ولاتَرْتبطُ فى نَسقٍ (نظام) شاملٍ يضمُّها . فماذا أنْتَ صانعٌ بنفسِك ، وبعلمِك ، آنئذ ؟

خذ هذا الكتاب

وفكّر برهانُ الدين بُرهةً ، ثم قالَ لشيخِه المرغيانىّ :

– فأرشِدْنى ياشيخىِ إلى طريقِ التحصيل .

فقال لهُ الشيخُ المرغيانى :

– يابرهانَ الدين . سأعْطِيك كتاباً يعلمُك : كيفَ تَحفَظُ ، وكيفَ تُحصِّل ، وكيفَ تراجِعُ ، وكيفَ تسترجِعُ ماسبقَ من درُوس ، وكيفَ تُفرِّع معارفَ العلمِ من شجرته ، أغصاناً ، وأوراقاً ، وثماراً ، وزهُورا .

ونهضَ الشيخُ المرغيانى إلى دَوَاليب مكتبتهِ ، وسحَب بيده ، من رفٍّ بَعْينه بينَ رفُوفِها ، كتاباً بعينِه من بين كتبِها ، وأعطاهُ لبرهانَ الدينِ ، قائلاً له ، وهو يعودُ إلى مجلسِه :

– خُذْ هذا الكتاب ، وانسَخْ لنفسِك منهُ نُسخة ، وأعِدْه إلَىّ ، لينتفع به سِواكَ من بعدِك ، فلعلّه أن يكونَ النسخةَ الوحيدةَ بخُوقند ، وقد جلبَه لى تاجرٌ ، سافرَ يوماً إلى المغرِب ، ونزلَ بالقيْروان .

ونظرَ برهانُ الدين إلى الكتابِ ، وقرأ عنوانه ، وعرفَ اسمَ مؤلفِه ، وكانَ الكتابُ للقابسىّ القَيْرَوانىِ ، وكانَ العنوانُ هو : « الفضيلةُ لأحوالِ المتعلّمينَ ، وأحكامِ المعَلّمينَ » .



الحفظ والفهم

فى كل ليلة ، كان « برهانُ الدين » ينسخُ بيدِه ، وبخطٍّ جميل ، نُسخَةً لنفسِه ، من كتابِ القابِسىّ ، ونسخةً أُخرى ، من كتابِ « الهِدَاية » فى الفِقه الحنفىّ ، لشيخِه المرغيانى . وفى كلِّ صباح لم ينقطعْ برهانُ الدينِ عن استذكارِ دروسِه ، ولا عَنْ سماعِ دُرُوسٍ جديدةٍ عصرَ كلّ يوم ، من شيوخِه فى الفقهِ وعلومِ اللغة .

ووعَى « برهانُ الدين » من كتابِ القابِسىّ مبادِىءَ لابُدّ من إتباعِها لطالبِ العلمِ ، أن يحفظَ كتاباً واحداً كمصدرٍ ومرجعٍ فى أىّ علم ، وأن يدرُسَ ماعدَاها فى ضوءِ ماحفِظه من حقائقَ العلمِ ، وأن يُقدمَ الفهمَ على الحفظِ ، ويتجنّب أن يحفظَ دونَ أن يفهمَ ، فالحفظُ يُنسى ، والفَهْمُ يَبْقى ، والقدرةُ على الفهمِ هى غايةُ كلّ عِلْم ، والطريقُ إلى أىِّ علم .

عليك بالفهرس

وأعادَ برهانُ الدينِ كتاب القابِسىّ إلى شيخِهِ ، وقد فهمه فهماً أرشده ، وأنارَ له الطريقَ ، وقالَ لشيخه :

– اكتشفتُ أمراً ياشيخِي ، وأنا أنسخُ بيدِى كتابَ القابسى ، وكتابك « الهِداية » .

فقالَ له المرغيانى باسماً :

– وماذا كانَ اكتشافُك يابرهانَ الدين ؟

فقال له برهانُ الدين :

– اكتشفتُ أن نَسْخَ طالبِ العلمِ للكتابِ بيدِهِ ، يمنحهُ قدرةً أكبر عَلى فهمِ مافيه ، وحفظ مقولاتِه ومعلوماتِه ، وأن اعتمادَ طالبِ العلم على كتابِ نسخَه غيرهُ ، يقلّل من فهمهِ له ، وقدرتِه على حفظِه .

فضحِكَ المرغيانى ، وقالَ لبرهانِ الدين :

– إلا فى حالةٍ واحدةٍ يابرهانَ ، إذا لجأ إليها طالبُ العلم فلَن يكونَ بحاجةٍ إلى إضاعةِ وقتِه ، فى نسخِ كتاب يمكن أن ينْسَخهُ له سِواه ، أو يشترى نسخةً منه من عندِ ورّاق ، من هؤلاءِ الوراقين .

فقال له برهان الدين :

– وما هذِه الحالةُ ياشيخى ؟

فقال لهُ المرغيانى :

– لكلّ كتابٍ مُحتوى (فهرس) منَ الأبوابِ والفُصُول . أليسَ كذلك ؟

فقال له برهانُ الدين :

– بلَى ياشيخِي .

فقال لهُ المرغيانى :

– فابدأ فى أىّ كتابٍ منسوخٍ لأجلِك ، بمعرفةِ هذِه الأبوابِ ، وتلكَ الفصول ، فى فهرسِ الكتاب ، ثم ابدأْ فى دراستِها فصلاً فصلاً ، وتحصيلها باباً باباً ، ولَسوْفَ يغنيك هذانِ الأمرانِ عن نسخِك لأى كتابٍ بيدِك ، مادمتَ قادراً على أن تَحْصُلَ على نسخةٍ منه ، نسخَها غيرُك .

وضحِكَ الشيخُ المرغيانى ، ثم قال :

– ومن يدرِى يابرهانَ الدين ، قد يأتِى يومٌ تجد فى نفسِك رغبةً ملحة لأن تضعَ فى التّعلّم والتعليمِ كتاباً ، هو ثمرة خبرتك فى التعلُّم ، على أيدى معلّميك ، وأنا لا أعرفُ فى هذَا المجال ، إلى زمانِى ، كتاباً آخر فى هذا الفنّ ، سوَى كتابِ القابسىّ القَيْروانِي .

ثم صار عالما

فى مدينةِ « خُوقند » عاشَ برهانُ الدين عمرا . لعلّه بلِغ خمسينَ أو أربعينَ سنة ، يعيشُ صيْفاً معتدلاً ممطراً ، بين عشرينَ وثلاثينَ درجةً مئويّة ، وشتاءً عاصفاً بالثلجِ والمطرِ ، تتراوح دَرجةُ حرارته بين الصّفرِ ، وعشرِ درجاتِ تحت الصفر . فى مناخ صحراوِيٍّ ، قارس (شديد) البردِ فى الليلِ . وكانتْ مدينةُ خُوقند « اندرين الآن » ، فى قلبِ وادٍ من السهوبِ (المراعى) ، تحيطُ بها عن بعدٍ قريبٍ ، جبالُ « تيانْ شَان » من الشمالِ ، والشرقِ والجنوب ، وعلى ارتفاعاتٍ جبلية تتراوح بين خمسمائة قدم وألفىْ قدم ، تُكلّل هاماتِها (قممها) ثلوج الشتاء ، ولايحولُ ذلكَ المناخُ القاسِى ، فى صيفه وشتائه ، بين برهانَ الدين وطلبِ العلمِ ، على يدِ شيخه المرغيانى ، وشيوخِه الآخرين .

وحينَ عَلت ، مكانةُ « برهانُ الدين » فى الفقهِ الحنفىّ ، كان يجلسُ فى المسجدِ الجامعِ بخوقند ، مكانَ أستاذِه ، ليدرِّسَ كتابَ « الهداية » لطلابِ الفِقْهِ الحنفىّ ، حين يُصابُ أستاذُه المرغيانى بمّرضٍ من أمراضِ الشتاءِ ، أو حينَ تُقعِدُه آثارُ الشيخوخةِ

وكِبرِ السنّ . فقد كانَ « برهانُ الدين » قد أحاطَ علماً بالفقهِ الحنفيِ كلّه ، أصولِهِ ، وفروعِه ، واختلافِ الآراءِ فى هذِه الفروع .

وكان أستاذُه المرغيانى قد أعانَه على العيش ، فألحقه بمسجد آخرَ من مساجدِ خُوقند ، ليكون واعظَه وإمامَه . فأخلَى برهانُ الدين مسكنَه المخصَّصَ لطلابِ العلم ، واستأجر لنفسِه مسكناً خاصا به ، أكثر غرفاً ، وأرحبَ اتساعاً ، يطلُّ على نهرِ آموداريا ، وتزوّج فتاةً من بناتِ « خوقند » . ولم تَنقطِعْ الرسائل والزياراتُ بيْنه وبين ذوِيه فى « زَرْنوج » .

أعدك ياسيدى

وذاتَ ليلةٍ ، توجّه « برهانُ الدين » ليعودَ (يزور) شيخَه المرغيانِى فى مرضِه ، فوجدَه أفضلَ حالاً . وفاجأ « المرغيانى » برهانَ الدينِ بقولِه :

— متَى ستضعُ فى الفقهِ الحنفِىّ كتاباً ، يحملُ اسمَكَ ، وتُدَوِّن (تسجلُ) فيه آراءَكَ ؟

فقالَ له « برهانُ الدين » بإخلاصٍ :

– فى العلم ، أىّ علمٍ ياسيدِى ، لايجدُر بعالمٍ أن يؤلفَ كتاباً فى علمٍ ما منَ العلومِ ، إلاّ إذا كانَ سيقولُ جديداً فيه ، منهجاً ، وطريقةَ عرض ، وآراءً وأفكاراً . وأنا أجِد فى كتابِك « الهداية » الغِنَى كلَّه ، عن أىِّ كتابٍ آخر ، فى الفقهِ الحنفىّ .

فقالَ له « المرغيانى » :

– حدَّثنى طلابُ العلم ، الذينَ استمعُوا لكَ ، فى دروسِ الفقه ، التى قُمتَ بعبئها (مسئوليتها) نيابةً عنى ، أنهُ لامثيلَ لك كمحاضرٍ ، ومناظرٍ ، ومجادلٍ ، ومناقشٍ ، ومحاورٍ . وقد أشادُوا واحداً بعدَ واحدٍ ، بطريقتِك فى التدريس والتعليم ، والإرشادِ إلى طرائقَ التحصيل ، فهماً وحفظاً . فلماذا لاتضعُ خبرتَك هذِه يابرهانَ الدينِ فى كتابٍ ، يكونُ مرشداً لطلابِك ، وهادياً مِنْ بعدِك لمنْ سِواهم من طلابِ العلم ، فى كلِّ العصورِ والبُلدانِ ؟!

فوجِىءَ « برهانُ الدين » بما قالَه شيخُه له ، وبسؤالِه المثيرِ ، فأطرقَ (أحنى رأسه) صامتاً ، ومفكراً . فقالَ لهُ المرغيانى :

– أتذكرُ كتابَ القابسىّ القيروانِى فى التعلُّم والتعليم ؟

فقال لهُ برهانُ الدين :

– نعمْ ياسيدِى . أذكرهُ وقد فهمتُه وحفظتُه . وبوُسْعِى الآنَ أن أُمليه من الذاكرةِ ، وأن أشرحَه شرحاً وافياً .

فقال له المرغيانى :

– يابرهانَ الدين ، أليستْ لك مُلاحظاتُ عليه ؟ ألم تأخُذْ عليه نواقصَ فى منهجِه ، وفصولِه ، ومقولاتِه ، ومعلُوماتِه ؟

فقال له برهانُ الدين :

– بلَى ياسيدى .

فقال له المرغيانى :

– إذن . فتوكّل على الله يابرهان ، وضعْ فى هذا الموضوعِ كتاباً جديداً من تأليفك ، تصبُّ فيه صباً ، رؤيةً جديدةً لك ، فى التعليمِ والتعلّم ، وخبرتَك فى طرائق التحصيلِ والتدرِيس . فمدخلُ العلمِ ، أىُّ علم ، هو أولاً ، فى كيفيةِ تحصيلكِ لهذا العِلم ، فهماً ، وحفظاً ، واستذكاراً ومراجعةً .

عندئذ لم يزدْ برهانُ الدين عن قولِه :

– أعِدُك بذلِك ياسيّدى

كتاب برهان الدين

خِلالَ أُمسياتٍ عديدةٍ ، دامتْ شهْرين لاغير ، أنجزَ برهانُ الدين كتابهُ الخاصَّ فى التعلُّم والتعليم .

استعرَض برهانُ الدينِ فى بدايةِ تأليفِه لكتابه ، منهجَ الكتابِ وفصولَه ، ووضَعها فى مقولاتٍ فكريةٍ محدّدة ، راحَ يُعبّر عنها فكرةً فكرةً ، وفصلاً بعدَ فصلٍ . مهتدياً بفهرسِه العام ، وحين ختَمه بحمدِ الله ، كان الكتابُ قد استوىَ فى كُتَيِّبٍ مُكثَّفٍ (مركز) وتعبيرٍ أدبىٍّ واضحٍ وبسيطٍ ، لاتشقُّ على قارئه متابعتُه ، ولامعرفةُ معانيِ كلماتِه وجُملِهِ ، ولاتَتابُعُ أفكارِه ، من المقدّماتِ إلى النتائج .

وحَمل « برهان الدين » كتابَه ، وذهبَ إلى شيخهِ المرغيانى . كان كتاباً ، فى ثلاثٍ وستينَ صفحة ، وأعطَى برهانُ الدينِ شيخَه كتابَه ، قائلا :

– عفواً ياسيدى . فالكتابُ قليلُ الصفحات ، وأرجُو أن يكون كثيرَ المعارِفِ ، غزيرَ الفائدةِ ، واضحَ الفهم ، بسيطَ التَّعبير .

وقَلّب المرغيانى كتَابَ برهانِ الدين ، ثم توقَّف عندَ فهرسِه ، وقال :

– أقْرأ لى يابرهانَ الدينِ فصولَ هذَا الفهرس .

وراحَ برهانُ الدينِ يقرأ عناوينَ فصولِ كتابِه ، قائلا :

– خطبةُ الكتاب ، فصولُ فى : ماهيةِ العِلْمِ والفقه وفضلِه ، النيةُ حالُ التعلم ، اختيارُ العِلْمِ والأستاذِ والشريك والثباتُ فى طلبِ العلم . تعظيمُ العلْم وأهلِه . الجِدّ والمواظبةُ والهِمّة . بداية السّبَق (الدرس) وقدرُه وترتَيبُه ، التوكّل فى طَلَبِ العلم ، وقتُ التحصيلِ للعِلمِ ، الشفقةُ والنصيحةُ لطالبِ العلمِ ، والاستفادة من العلم فى كلّ وقتٍ ، والوَرعُ (التقوى) فى حالةِ التعَلم ، ومايُورث الحفظَ ومايُورثُ النسّيان ، ومايجلبُ الرزق لطالبه وما يمنعهُ ومايُزيدُ فى عمره ومايُنقصُه .

عندئذٍ التفتَ المرغيانى إلى برهانِ الدين ، وقالَ له باسماً :

– أحسنتَ الاختيار لفصولِ كتابك يابرهانَ الدين . ويُعجبنى فيما سمعتُه منكَ من عناوين ، مزْجُك بين طلبِ العلم وتَقوى طالبِ العلم ، طلباً للإخلاصِ ، والنزاهةِ فى طلبِ العلم ، والغايةِ منه . فدعْ لى هذا الكتاب ، لأقرأهُ غداً ، وأنا

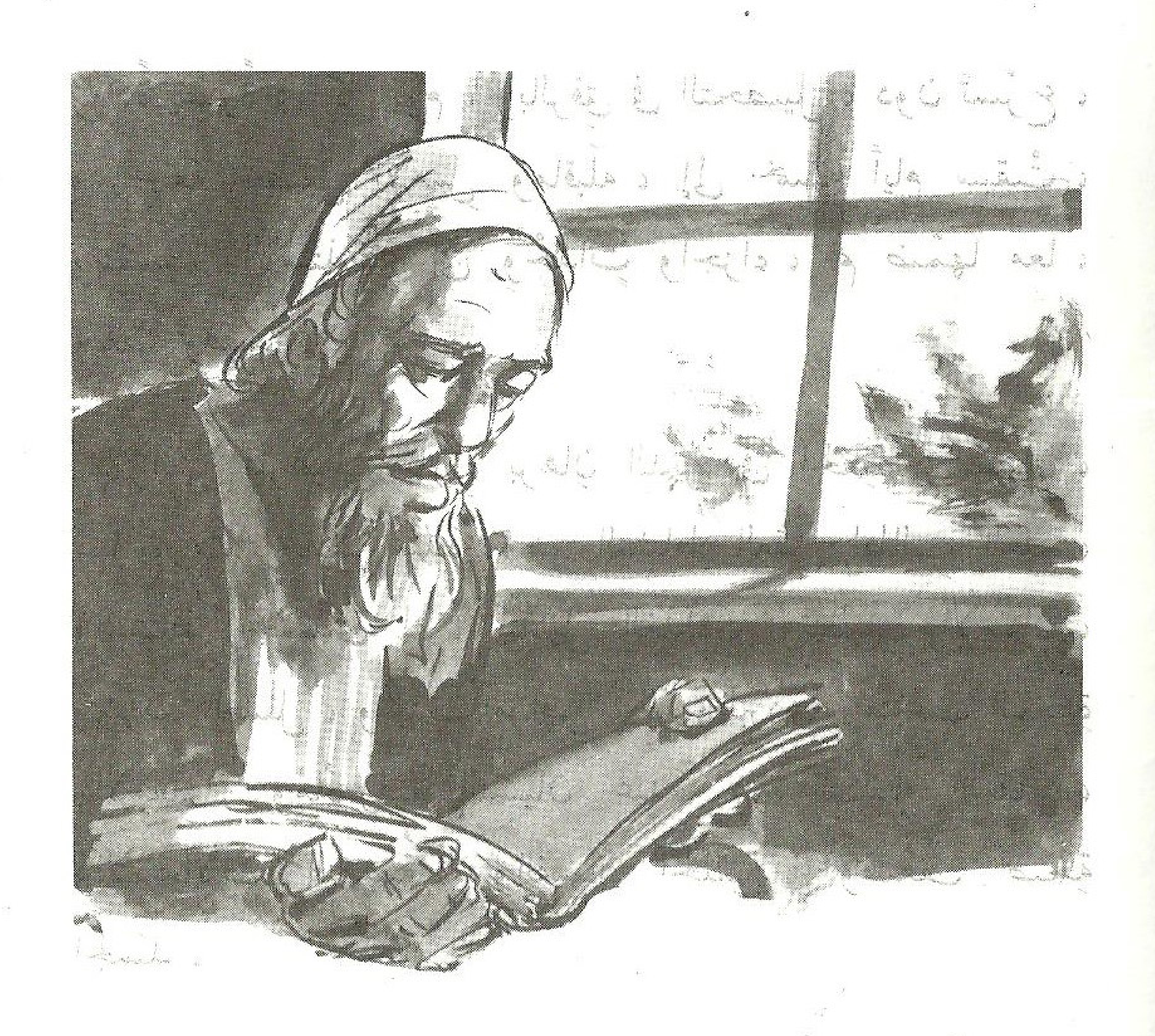
جالس فى الشمسِ ، مديراً ظهرى إلى زُجاجِ النافذةِ .

وسكت المرغيانى لحظة ، ثم قال بحبّ لبرهانِ الدين :

– بارك الله فيك يابرهانَ الدين ، فلم تخيّب يوماً ، حُسنَ ظنّى بك ، منذ أنْ رأيتُك لأول مرةٍ قادماً إلىّ من « زَرْنوج » .

وراء النافذة

فى الصباحِ ، وقتَ الضحى ، جَلس المرغيانى الجلْسة التى يُحبُّها شتاءً ، كلما مَدّتِ الشمسُ أشعتَها وحرارتَها ، عبرَ الزجاجِ المُغْلَق ، اتّقاء للبردِ وللهواء ، وكانتْ ثمة مِدْفأةٌ يتوهجُ مابها من جَمْرَاتِ الفَحْم ، فى جانبٍ بعيدٍ من الغُرفةِ ، يقرأُ قراءةَ عالِمٍ مدرَّب ، على مَهَل ، كتابَ برهانَ الدين عن التعلُّم والتعليمِ ، عن حالِ طالبِ العلم ، وأخلاقِه ، وإخلاصِه فى التعلّم والتحصيل ، وعن عناصر نسقِ (نظام) التعلُّم ، بالتأهبِ ، والنيةِ ، والهمةِ ، والتوكّل ، وعن أدبِ النفسِ بتعظيم العلمِ والعلماء ، وتجنُّب الذميمِ من الأخلاقِ ، وعن ضرورةِ المشاركةِ فى طلبِ العلم بالمطارحةِ ، والمناظرةِ ، والمذاكرةِ ، والمشاوَرة ، والتأملِ الموَجّه فى دقائقِ العلمِ ، وعن ضرورةِ



حيويةِ طالبِ العلم ، بالفهمِ ، والتكرار ، وعدمِ الكسلِ ، والاستمرارِ فى طلبِ العلم .

وتوقّفَ « المرغيانى » عندَ آراءِ برهانِ الدين بضرورةِ التدرّجِ فى طلبِ العلم ، بالبدءِ من المعلومِ إلى المجهولِ ، ومن المحسوسِ إلى المعقولِ ، ومن اليسيرِ الفهمِ إلى الصعبِ الفهم ، وباتباعِ أسلوبٍ معين فى المراجعةِ ، والحفظِ ، وبزيادةِ القدرِ المدروسِ

زيادةً يسيرةً فى كل يوم ، وبالرفقِ فى التحصيل ، دون تَسرّع ، وبمراجعة تحصيل الأمسِ وماقبلَه ، إلى خمسةِ أيام سبقتْ ، وبتقسيمِ الاستذكارِ إلى وِحْداتٍ وأجزاء ، ثم ضمّها معا ، حفظاً وفهماً .

وانبهرَ المرغيانى بآراءِ برهانِ الدين فى الحفظِ والنسيان ، فما يُورثُ الحفظ عندهَ ، هو النشاطُ العقلى لطالبِ العلم ، والنشاطُ الجسدِى له ، بتقليلِ الغذاءِ ، وتنظيفِ الأسنان ، وشُرْبِ العسل ، وتجنبِ أمراضِ الحرّ والبردِ ، ومتاعبَ المِعدَةِ والأمعاءِ . ومايُورث النسيانَ عندهَ هو الكسلُ العقلىّ ، والانفعالاتُ النفسيةُ ، والفسادُ الخلقى ، وضعْفُ صحةِ الجسَد .

وشعرَ المرغيانى بوهَن (ضعف) جسده ، فتوقّف عن القراءةِ ، وأغفَى (نام نومة قصيرة) فى مكانِه ، إلى أن أيقظه صوتَ المؤذّنُ يؤذن لصلاةِ الظهر .

أخلاق طالب العلم

فى الليلِ ، جاءَ « برهانُ الدين » لزيارةِ شيخهِ المرغيانىِ ، وكان يبدُو عليه القلقُ والتوتّر . وحين رآه المرغيانى ، وهو مضطجعٌ (راقد) فى سريره ، ضِجْعَة الجالسِ والراقد معاً ، قال لبرهانِ الدين :

– أراكَ قلقاً يابرهانَ الدين . وأظنُّ أن سببَ قلقِك ، هو شوقُك إلى معرفةِ رأيى فى كتابِك .

فقال لهُ برهانُ الدّين :

– نَعمْ ياسيدى .

فقال له المرغيانى :

– طبْ نفسا يابرهانَ الدين . أعجبنِى كتابُك وراقنِى ، فهو كتابٌ بديعٌ . قرأتهُ اليومَ فى جِلستين ، عندَ الضحى ، وعندَ العصر .

فقال لهُ برهانُ الدين :

– يُسعدنى رأيُك ياسيدى .

فقال له المرغياني :

– كيف ترى يابرهانَ الدين السلوكَ الأخلاقِىّ لطالب العلمِ فى تعامِله العلمى ؟

فقال له برهان الدين :

– أجبْتُ عن هذاَ السؤال فى فصولِ كتابِى ياسيدى . وأوجزُه الآنَ فى غايات علىَ طالبِ العلم أن يراعِيهَا فى تعامِله العِلمى ، مع العلماءِ ، وطلابِ العلم الذينَ سيشاركُهم فى طلبِ العلم .

فقال لهُ المرغيانى :

– هاتِ موجزَك يابرهانَ الدين ، فإنى أسمع .

قال برهانُ الدين :

– على طالبِ العلمِ ياسيدى ، بعد أن يُحسِن اختيارَ العلمِ الذى يحّبه ، واختيارَ المعلّمِ الذى يؤثرهُ (بفضله) ، واختيارَ شركائِه فى طلبِ العلم ، خاصةً الذين يذاكرُ معهم ، عليهِ أن يعظّمَ معلّمه ، ويحترمَ شركاءَه فى طلبِ العلم ، وعليه أن يُحسنَ الظنَّ بالناسِ عامة ، وبالمعلمِ والشركاءِ خاصة ، وعليهِ أن

يحرِصَ على الوفاءِ مع شركائِه فى طلبِ العلم ، بمعرفةِ آدابِ المشاركةِ والمُشاوَرَةِ ، والمطارَحةِ والمذاكرةِ ، والحِوَارِ والمَناظَرةِ . وعليه أن يعرِفَ أنّ الغاية من المناظرةِ والمحاوَرةِ ، هى إظهارُ الحق ، لا إفْحَامُ الخصم ، وأنّ الحوارَ يكُونُ بالإنصافِ لرأيِ الآخر ، والتأنّى فى إبداءِ الرأى ، والتأملِ فيما يقولُ ، وفيما يَسمَعُ ، وتجنّبِ الغضبِ والسّبابِ فى المناقَشةِ ، والتعصُّبِ للرأْيِ . وعليهِ أن يبتعدَ عن التمويهِ فِى حوارِه ، ومخادعةِ مُناظِره ، والتحايُلِ عليه . وكلُّها ياسيدِى غاياتٌ اجتماعيةٌ أخلاقيةٌ .

آفة طلاب العلم

فى تلك الليلةِ ، طالت أسئلةُ الشيخِ المرغيانى لبرهانِ الدين ، وكثُرتْ موجزاتُ برهانُ الدينِ لآرائِه فى كتابِه ، خاصةً عن الحفظِ والنِّسْيانِ .

وفى تلكَ الليلة ، قال المرغيانى لبرهان الدين :

– غداً إن شاءَ الله ، سألتقِى بالعلماءِ فى المسجدِ الجامع ، لأحدِّثهم عنْك ، وهُمْ يعرفُونك ، وعن كتابِك ، وهم لم يعرفُوه بعد . ولسوفَ أطلبُ منهم تكليفَك بإعدادِ طلابِ العِلمِ



الجُدُد ، لحلْقاتِ دروسِهم ، تُعلِّمهُم كيفَ يقرءُون كتاباً ، وكيفَ يفهمونَه ، وكيفَ يحفظونَه ، وكيف يذاكِرُون ، ويراجعُون مذاكَرَاتِهم ، فآفةُ تحصيل العلمِ ، هى جهلُ طلابِ العلم بطُرقِ هذَا التحصيل .

وسعِد برهانُ الدين بما قالَه له شيخُه ، وقال لَه :

– أرجُو أن أكونَ عند حسنِ ظنّك ، وظنِّ العلماءِ بى .

مسئوليات برهان الدين

وسكَتَ برهانُ الدين لحظةً ، ثم قالَ لشيخهِ :

– لم أضع لكتابِى هذا عنواناً . فقد احترْتُ حقاًّ فى اختيارِ عنوانٍ له ، ورجوتُ أن تُشيرَ علىّ بعنوانٍ دقيقٍ ، يُعبِّر عن موضوعِ هذا الكتابِ .

فضحِك المرغيانى ، وقالَ لبرهانِ الدين :

– ذكّرتنى بما نِسيتُ أن أذكرَه لك يابرهانَ الدين . اجعلْ عنوانَ كتابَك هذَا ، إذا رضِيتَ عنهُ ، وقبِلتَه : « تعليمُ المتعلِّم طريقَ التعلّم » .

وصارَ على برهانِ الدين ، أن يَحملَ عبءَ (مشقة) مسئولياتٍ ثلاثٍ : أنْ يُدرِّس كتابَه ضُحَى كلّ يومٍ لطلابِ العلم الجُدُد ، وأنْ يُدرّس كتابَ « الهداية » عصرَ كلِّ يوم لطلابِ حلقةِ الفقهِ الحنفي ، وأن يصلّي بالناسِ ، فى المسجدِ الذى يعملُ بهِ واعظاً وإماماً ، الصلواتِ الخمْس .

فى بيت الأمير

وذاتَ يومٍ ، صحبَ برهانُ الدين شيخه المرغيانى ، للقاءِ أميرِ خُوقند . فلقد قرأ الأميرُ كتابَ « برهانِ الدين » « تعليمُ المُتعلِّم طريقَ التعلم » ، وأُعجبَ به ، فدعَا الشيخَ المرغيانى للقائِه ، ورجَا منه أن يصحَبَ معَه ذلِك العالِم اللامعَ « برهانَ الدينِ الزرنُوجّى » .

وجلَس المرغيانى وبرهانُ الدين معَ الأمير جلسةً خاصةً ، فى شرفةٍ بطابَق عُلوى بقَصرِ الإمارة ، يأكُلون حلْوَى ، ويشربُون شاياً ، ويتسلَّوْن بالمكسراتِ من بُنْدقٍ ، وجوْزٍ ، ولوزٍ . وكانَ الحديثُ يروحُ ويجيءُ بينَ الثلاثة ، فى شئونٍ شتَّى ، من شئونَ

العلم ، والسياسةِ ، وحياةِ الناسِ فى خُوقَند ، وأحوالِ طلابِ العلم فى تركستان الشرقية (أوزبكستان الآن) .

خذ بيد ولدى

والتفتَ أميرُ خوقند إلى برهانِ الدينِ ، وقالَ له :

– الآنَ تدخلُ فى الموضوعِ الذى دعوتُك من أجلِه يابرهانَ الدين ، بعدَ أنْ أطمأنّ قلبِى إليك .

فقالَ له برهانُ الدين :

– مُرنِي بما تشاءُ ياسيدى الأمير .

فقال لهُ الأميرُ :

– إذا قَبِلتَ أيُّها العالمُ الجليل ، أن تكونَ مُؤَدِّبا (مربِّيا) ومعلّما لولدِىَ الأكبر ، وولِّى عهدِى من بعدِى ، فسوفَ تجلب السّرورَ إلى قَلبِى ، وتُهدِى أهلَ خُوقند أعظمَ هديةٍ ، برعايتِك لابنِي .

وهَمّ برهانُ الدين بالكلامِ ، معتذراً بأنه لايصلُح لتعْليمِ

الصّبيان ، وأنّ بضاعتَه من العلمِ هى فى الفقهِ الحنفِىّ ، لكنّ الأميرَ قطعَ عليه طريقَ القولِ بقوله :

– لاتعتذرْ يابرهانَ الدين . فما أريدهُ منكَ لولدِنا ، هو أن تأخُذَ بيدِهِ ، لتُعلّمه طريقَ تحصيلِ العلم ، وكيفَ يحفظُ ويفهَم ، وكيفَ لاينسَى ولايغفَل ، وكيفَ يواظِبُ على تحصيلِ دُرُوس العلمِ ، دونَ أن يُجهدَ أو يَملّ ويسأم ، حتى يتعلمَ كيفَ يحصِّلُ العلمَ وحدَه ، دونَ معلّم لو دعَا الأمرِ . ولْتَعْلَمْ يابرهانَ الدينِ أن وَلَدَنا يتردّدُ عليه معلّمونَ مُقْتدرُون ، فى علومٍ بعينها ، أعلم أنها تلزَمُ لإعدادِ منْ يتعلمُ لأنْ يكونَ حاكِماً لرعِيّة ، وولدِى أهلٌ لها ذكاءً وخُلقا .

فقالَ المرغيانِى للأمير :

– اخترتَ أيّها الأميرُ الرجُلَ الجديرَ بهذِهِ المهمّة ، وهى مهمةٌ يسيرةٌ علَى برهانِ الدين .

وعندئذٍ قالَ برهانُ الدين للأمير :

– قبلتُ هذِه المهمةَ ياسيدِى الأمير .

كيف أحفظ ولا أنسى ؟

فى أول لقاءٍ بينَ برهانِ الدين ، وابنِ أميرِ خوقند ، وكانَ شاباً دُونَ السادسة عشرةَ من العمرِ ، قالَ برهانُ الدين لابنِ الأمير :

– أخبرنى يابنى بالمُشكلاَتِ التى تواجِهُها فى تحصِيلِ العِلم .

فقال له أبنُ الأمير :

– أوُل مشكلةٌ ، وأكبرُها ياسيدى ، هى فى الحفظِ لا فى الفهمِ ، وفى النسيانِ لا فى الكسَلِ .

فقال له برهان الدين :

– هذهِ مشكلةٌ كبرىَ يابُنى ، ولستَ وحدك الذى تعانِى منها ، فكُل طلابِ العلمِ يواجِهُون هذه المِحنَة . فاسمعْ منّى يابُنى .

فقال له ابن الأمير :

– إنى لكَ ، ياسيدِى العالمِ ، سامعٌ ومُطيعٌ .

فقال له برهانُ الدين :

– عليكَ يابُنىّ ألا تَحفَظَ من الكتبِ ، مادامَ الفهمُ يسيراً عليْكَ ، سِوى كتابٍ واحدٍ ، كمرجعٍ فى هذا العلم ، يذكرُه لك أستاذُك فى هذا العلم .

فقال له أبنُ الأمير :

– وماطريقةُ الحِفْظِ التى لا أنْسَى معها ياسيدى ومُعلّمى ؟

فقالَ له برهانُ الدين :

– عليكَ أن تَحفظَ وأنتَ تنظُرُ إلى الكلماتِ المكتوبةِ بعينيْك ، ولاتَعتَمِدْ على الحفظِ وأنتَ تسمعُ ، والترديدِ لما تسمعُه . وعليكَ أن تَقسِّم ما تحفظُه جُزءاً جُزءًا ، وبقدرٍ معلومٍ فى كلِّ يوم . وعليكَ ألا تحفظَ إلا وأنتَ فى حالٍ من اليقظةِ تكونُ مستعداً فيها للحفظِ . وعليكَ ألا تحفظَ إلا فى وقتٍ مناسبٍ لكَ فى الحفظِ ، من الليلِ أو النهارِ . وعليكَ ألا تحفظَ أىَّ قدرٍ من العلمِ إلا بعد فهمِه قبل الحفظ . وعليكَ ألا تحفظَ إلا علماً تُحبُّه ، وتختارُه ، حتى تكونَ راغباً فى حفظِ هذا العلمِ . وعليكَ أن تلتزمَ فى غذائِكَ بتناولِ أطعمةٍ وأشربةٍ ، فيها سُكر وَفيرٌ ، مثل العَسل ، والعصائرِ المُسكَّرة ، حتى

تساعدَك الصحةُ ، ويعينُك حسنُ الغذاءِ ، على اليقظةِ ، والحفظِ ، والفهم .

فقال له ابنُ الأمير :

– وكيف أسترجعُ ما حفظتهُ ياسيدى ، حينَ أشاءُ ، ولا أنساه .

فقال له برهانُ الدين :

– إذا واظبتَ فى كلّ يوم عِلى أن تسترجعَ ماحفظته خلال خمسةِ أيامٍ علَى الأكثرِ ، فسوفَ لاتَنْسَى ماحفِظتَه قَطّ ، إلا إذَا انقطعتَ عن دراسة هذا العلمِ . فالتركُ يورثُ النسيانِ ، والنسيانُ يورثُ ضياعَ العلمِ . فخذْ نفسَك فى الحفظِ والتذكرِ لما حفظت بالرفقِ ، وبالتجزىء ، والتدرجِ ، وبالتنظيمِ تبلغُ الغايةَ التى تصبُو إليها .

ودامتْ دروسُ برهانِ الدين ، المؤدِّبُ المربّى ، لابنِ الأميرِ قرابَة ستّةِ أشهر ، يلتقيان كلّ يومٍ فى ساعةِ الضّحُى ، فى دارِ الإمارةِ ، وينفصلاَن عنْدَ أذانِ الظهر ، إلى لقاءٍ آخرَ ، فى يومٍ جديدٍ .



مدّ وجَزْر

فى القرنِ الهجرىّ السادِس ، الميلادىّ الثاني عشرَ ، عاشَ « برهانُ الدينِ الزرنوجى » . وكان قرْننا خالياً من الأحداثِ الكبرَى فى العالمِ الإسلامىّ فكلّ ماحدثَ فى هذاَ القرنِ ، هو أن دولاً إسلاميةً قد حلّت فى السيطرةِ ، محلى دولِ إسلاميةٍ سابقةٍ عليها ، بالقهْرِ والغلبةِ . فقد انتزعَ الموحّدونَ فى المغربِ

الإسلامِىّ والأندلسِ الحكمَ من المرابِطينَ . وحلّ الأيوبيّون ، فى مصرَ والشام والحجازِ ، محلّ الفاطميّين . وذهبَ السلاجِقَةُ فى فارسَ ، وجاءَ بدلاً منهم الخُوارِزْمْشاهِيَّة . وتركَ الغَزْنوِيّون أفغانستانَ وجنوبَ فارسَ للغُوريّين . وانتزعَ « القُره خطاى » الوثنيون بلادَ ماوراءَ النهرِ من المسلمين .

وفى افريقية الشرقية والغربية ، كسِب المسلمونَ مزيداً من الأراضى الافريقية . وراحَ الصليبيوّن يضربُون فى طرِيقهِم ، فى الشام ، وشمالِ العراق ، دونَ أن يحصلُوا على ثمرةٍ أو نتيجة ، أو ينالُوا استقراراً فى مدينةٍ احتلّوها .

قرن المدارس والمدرسين

وفى هذا القرن ، ظل النشاْطُ العقلىّ قَوياً عند المسلمينَ ، وراحَ الأوروبيون ، لأول مرةٍ ، ينافسُون المسلمينَ فى هذا النشاطِ العقلى ، بفضل معارِفِ المسلمين وأفكارِهم ، التى تعرفُوا عليها عبْر جزرِ المتوسّط ، والأندلسِ ، وخلالَ حَملاتِهم العسكرية على الشامِ ، وشمالِ العراق ، وأثناء تجارَاتِهم البحرية الغاديةِ والرائحة ، مع الموانئِ العربيةِ ، وبفضلِ حرصِهم على

ترجمةِ الثَّمَراتِ العلمية الكُبرى ، التطبيقية منها خاصةً ، إلى اللغةِ اللاتينية ، أولاً بأول ، ولقد رفعتْ هذِه الثمراتُ العلميةُ من هيبة المسلمينَ فى أعين الأوروبيين .

لكن الآثارَ العقلية للمسلمينَ فى هذا القرن ، كانتْ أقلَّ شأناً من آثارِهم فى القُرونِ الماضيةِ . فقد صار العلماءُ فى المشرقِ الإسلامىّ ، حتى من صارَ منهم أئمةً للعلمِ فى هذاَ القرن ، عيالاً وعالةًعلى المسلمينَ السَّابقينَ ، فقد أصابَ أهلَ الجدَلِ من علماءِ الكلام، والرجعيّون من أهلِ الجمود ، عقولَ الناسِ بالعُقْم والضعفِ .

وفى الوقتِ نفسه ، كانت تحدثُ فى المغرب الإسلامىّ عامةً ، وفى الأندلسِ خاصة ، نهضةٌ ثقافيةٌ عظيمة ، ارتفعتْ فوق إنتاج المشارقة العلمىّ ، أولئكَ الذين تكبّلهم (تقيِّدُهم) التقاليدُ ، ويعجزُهم الجدلُ والجمودُ عن السعى فى العلمِ إلى جديدٍ . ففى الأندلسِ خاصة ، حدثتْ نهضةٌ طبيةٌ وفلسفيةٌ عظيمة ، كانَ من أعلامِها : ابنُ طُفَيْل ، وابنُ رشد ، وابنُ زُهْر . وصارَ للشريفِ الإدريسىّ خاصةً ، الفضلُ فى نشرِ الثقافةِ الإسلاميةِ فى أوروبا ، عبر الأندلسِ وصقليّة .

وفى هذا القرنِ الخاملِ والخامدِ فى المشرقِ الإسلامى ، عاشَ برهانُ الدين الزرنُوجى ، أبو التربية والتعليم ، بين علماءَ مدرسين ، وعلماءَ شُراحاً ومعلّقين على آثارِ السابقين ، ولكنه استطاعَ أن يؤسّس طريقة فى التربيةِ والتعليمِ ، كانت منهجاً وحصَادا وتَقْنينا لآثارِ السابقِين ، فى التربية والتعليم ، من الفلاسفِة المسلمين ، والمعلّمين ، وفى عصرٍ بدأتْ توجدُ فيه ، مدارسُ للتعليم ، إلى جانبِ المساجد الجامعة الكبرى ، فى مصر ، والشام ، والمغرب ، والأندلس .

●

ولايعرفُ أحدٌ من المؤرخِينَ ، وكتابِ موسوعاتِ الأعلامَ ، فى الشرقِ أو الغربِ ، تاريخَ ميلادٍ لبرهانِ الدينِ الزّرْنُوجىّ ، فكّل ما أشارَ إليه المؤرخُون والموسوعيّون هو أنّ برهانَ الدين قد ودّع الدنياَ فى العامِ الهجرِى السادسِ والتسعينَ بعد الخمسمائةِ ، الميلادىّ التاسعِ والتسعينَ بعد مِائةٍ وألف ، وأنهُ قدْ ألف كتابَه « تعليمُ المتعلّمِ طريقَ التعلّم » قبل أن يودّع الدنيا بثلاثِ سنوات ، ولم يذكرِ المؤرخُون ولا الموسوعيُّون أينَ وُورِىَ (دفن) جَسَدُ برهانُ الدينِ الزرنُوجى ، فى أىّ بقعةٍ من

بقاعِ تِركستان الشرقية ، التى نعرِفُها الآنَ باسمِ أُوْزِبكِسْتَان .

●

فى الشرقِ ، اشتهر كتابُ برهانُ الدينِ الزرنُوجىّ « تعليمُ المتعلّمِ طريقَ التعَّلم » ونافسَ هذا الكتابُ فى القرونِ التالية ، كتاباً آخر فى التربية والتعليمِ سابقاً عليه ، هو كتابُ القابِسىِّ القيرُوانى ، وكتاباً آخر جاءَ بعده ، فى التربيةِ والتعليم ، هو كتابُ « فى أحكامِ المعلمين والمتعلِّمين » لمحمد بنِ أبى زَيْدٍ . ويعدّ الأستاذُ الدكتورُ إبراهيم سلامة ، كتابَىْ القابسى والزرنُوجى ، أهمَّ كتابيْن فى التربيةِ ، فى الثقافةِ الإسلاميةِ العربيةِ القديمة .

وفى الشرق اختلفتْ عناوينُ كتاب « برهان الدين الزرنوجى » ، على أيدِى الناسِخين ، قبل أن يُطلَ عصرُ الطباعة ، فهو تارة يحمل عنوان : « تعليم المتعلمين على الكَمالِ » وتارةً يحملُ عنوان : « تعليمُ المتعلِّم لِتَعَلُّم طريق التعلُّم » وتارة يحملُ عنوان « تعليمُ المتعلّم طريقَ التعلم » . وقد شرحَ إبراهيمُ ابنَ اسماعيل كتاب الزرنوجى ، بهذا العنوانِ الأخير ، فى رسالةِ سماها : « الرسالة المسماة بتعليم المتعلمِ طريق التعلم » وشرحه

من قبلِه ومن بعدِه كثيرُون .

وفى الشرقِ « طبع كتابُ برهانُ الدين ، فى تونسَ ، ومصرَ ، ومرشد آباد وقازَان ، والآستَانَة ، وأكثرُ هذه الطبعات عدداً كانَ فى مصر ، منذُ أواخرِ القرنِ التاسعِ عشرَ الميلادىّ ، إلى اليوم .

وفى الغربِ تُرجم كتابُ برهانُ الدينِ الزرنوجىّ إلى اللغة اللاتينية . ثم توالتْ طبعاتُه وترجماتُه ، منذ أوائلِ القرنِ الثامنِ عشرَ الميلادىّ ، إلى اللغتينِ الألمانيةِ والإنجليزية .

●

وفى الشرقِ والغربِ كتَبَ كثيرونَ من المحَدَثينَ عن نظرةِ برهانِ الدين الزرنُوجى فى التربية والتعليم ، بينَهم مستشرقُون من ألمانيا وفرنْسا وانجلترا ، وبينهَم علماءُ تربيةٍ عربٍ محدثُون ، وفى طليعةِ هذه الكتاباتِ العربية عن الزرنُوجى كتابُ « التعلم عند برهان الإسلام الزرنوجى » لأستاذٍ من أساتذةِ التربية بكلية التربيةِ بجامعةِ عين شمس ، هو الدكتور « سيد أحمد عثمان » . وهو الكتاب الوحيدُ ، فيما نعلمُ ، عن التعلّم عند الزرنُوجى . مثلما كان كتابُ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى « التربيةُ فى

الإسلامِ أو التعليمُ فى رأيِ القابسى » هو الكتابُ الوحيد .

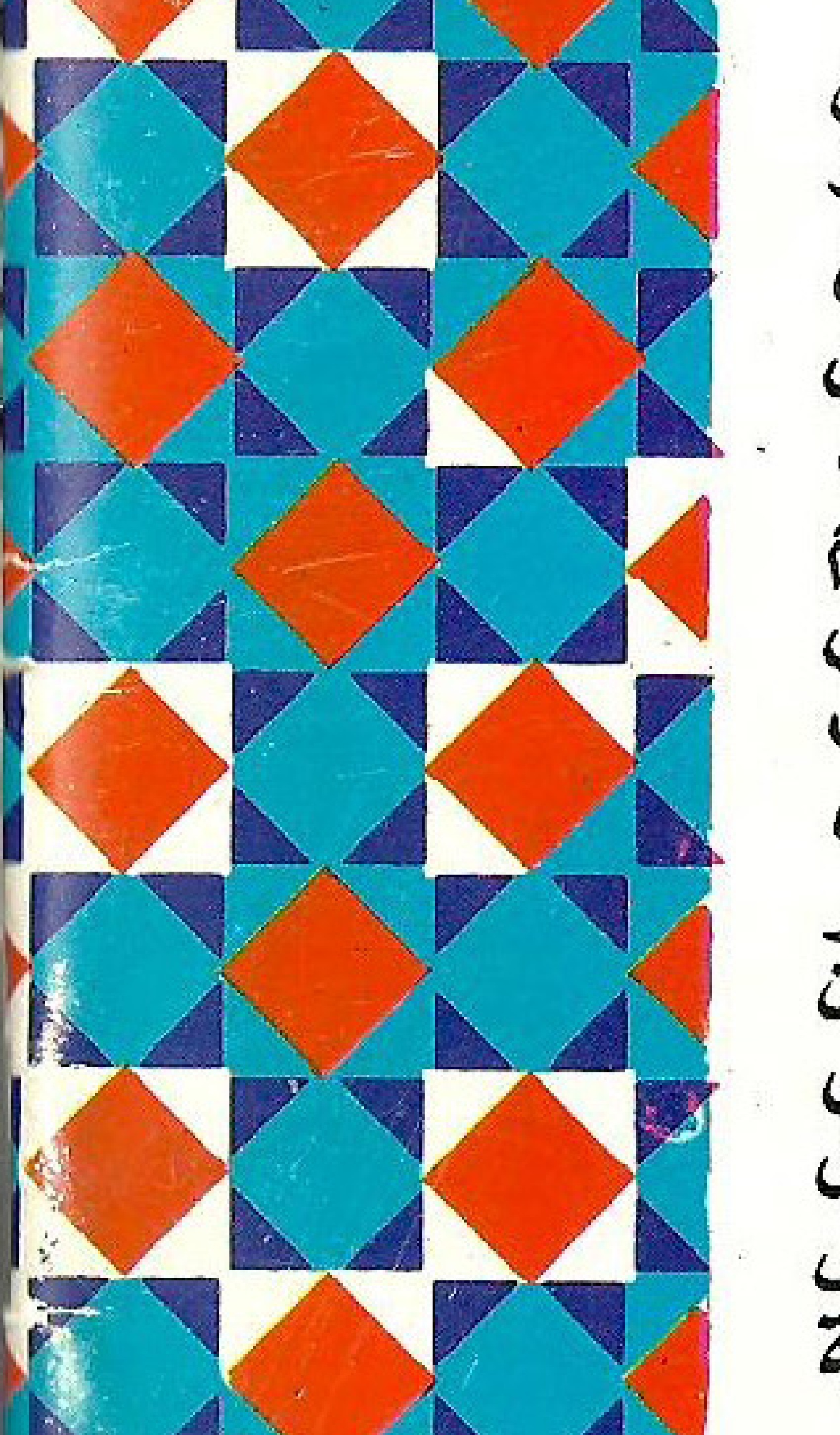
●

عاشَ برهانُ الدين الزرنوجيّ ، فى عصرٍ شاعَ فيه الاهتمامُ بإنشاءِ المدارس ، وتأسيسِ المعاهدِ الدينية ، وانتشرتْ فيهِ مجانيةُ التعليمِ بهذه المدارس ، وبالمساجدِ الجامعةِ فى عواصمِ العالمِ الإسلامىِ ، ومدنِه الكبرى .

ولطلاب العلم ، والمعلمين ، ألف الزرنوجى كتابه فى التربية والتعليم محتذيا كتاب سابقة « القابسى القيروانى » فى التربية والتعليم ، فوضع بكتابِه أُسُسَ التربية للحضارة العربيةِ الإسلامية ، فى العصورِ الوسطى ، وتأثّر الغربيّون بثمراتِ هذا الكتاب فى التربيةِ ، إثرَ ترجمتِه إلى اللاتينية ، ثم بعد ترجمتِه إلى الألمانيةِ والإنجليزيّة ، ولم يهتمّ أحدٌ بعدُ من الدارسين العربِ بدراسةِ هذا التأثير ، فى المناهج الغربية ، فى التربية الحديثة ، لمفكرٍ تربويٍّ عربىٍ مسلمٍ ، عرفتْه الحضارةُ العربيةُ الإسلاميةُ قبلَ ثمانمائةِ عام .

رقم الايداع

٩٧/١٥٣٤٨



علماء العرب

٣١

الزرنوجى

عالم عربي مسلم ، عاش فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ، على ضفاف نهر " سيحون ". وكان من آباء التربية والتعليم فى العصور الوسطى وألف كتابا شهيرا فى علم التربية ، ليعلم به طلاب العلم طريقة فى التحصيل العلمى والمراجعة . وترجم كتابه إلى اللغات اللاتينية والإنجليزية والألمانية .
وأثرت آراؤه التربوية فى عصره وبعد عصره . إنها قصة تثير الفخار يقرؤها الصغار والكبار .

صدر من هذه السلسلة :

١ ـ ابن النفيس
٢ ـ ابن الهيثم
٣ ـ البيرونى
٤ ـ جابر بن حيان
٥ ـ ابن البيطار
٦ ـ ابن بطوطة
٧ ـ ابن سينا
٨ ـ الفارابى
٩ ـ الخوارزمى
١٠ ـ الإدريسى
١١ ـ الدميرى
١٢ ـ ابن رشد
١٣ ـ ابن ماجد
١٤ ـ القزوينى
١٥ ـ ابن يونس
١٦ ـ الخازن
١٧ ـ الجاحظ
١٨ ـ ابن خلدون
١٩ ـ الزهراوى
٢٠ ـ الانطاكى
٢١ ـ ابن العوّام
٢٢ ـ الطوسى
٢٣ ـ الكاشى
٢٤ ـ الوزّان
٢٥ ـ ابن الرزّاز
٢٦ ـ تقىّ الدين
٢٧ ـ الرّازى
٢٨ ـ الكندى
٢٩ ـ الخليل
٣٠ ـ ابن حمزة
٣١ ـ الزرنوجى

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـ القاهرة

مطابع الأهرام التجارية ـ قليوب ـ مصر